نظرة المستشرقين إلى مناهج كتابة التاريخ عند المؤرخين المسلمين

بن عتو حمدون
جامعة الشلف

Abstract:

There is no doubt that historiography has found fertile ground among Muslims since the beginning of Islam, and how not! God they have cut a number of stories that tell the human Nations News in past centuries, but rarely Muslims commissioned in the modern era themselves the trouble of research and investigation in this aspect, as not one of them does research in comprehensive scientific methodology in history when history scholars of Muslims.

Keywords:

Muslims - the human Nations - research - history - comprehensive scientific.

مما لا شك فيـه أنّ علم التأريخ قد وجد تربةً خصبةً عند المسلمين منذ بداية الإسلام ، وكيف لا! وقد قصّ الله تعالى عليهم عدداً من القصص التي تحكي أخبار الأمم البشرية في القرون الغابرة ، ولكن قلّما كلّف المسلمون في العصر الحديث أنفسهم عناء البحث والتحقيق في هذا الجانب ، كما لم يقم أحدٌ منهم بالبحث في المنهجية العلمية الشاملة في التأريخ عند علماء التاريخ من المسلمين ، فاكتفى عددٌ منهم بتناول مناهج

بعض علماء التاريخ من المسلمين في عصور متفرقة من غير التشمير عن ساعد الجِدّ للقيام ببحثٍ يُبرز جهود علماء المسلمين في التأريخ ، ويقوّم هذه الجهود تقويماً موضوعياً ، للخروج بصورةٍ واضحةٍ عن هذه الجهود وللإجابة عن تساؤل يطرح نفسه : هل كان علماء التاريخ من المسلمين يسيرون في تأريخهم على منهجية واضحة ؟ وهل كانت هذه المنهجية منهجيةً علميةً تضاهي مقاييس المنهجية العلمية المعاصرة في البحث العلمي ؟

ومن جانب آخر، لم يستطع المسلمون في العصر الحديث من إنتاج (موسوعة إسلامية) تسجّل جميع – أو معظم – المعارف المتعلقة بالإسلام والمسلمين ، ومن بينها المعلومات المتصلة بعلم التأريخ عند المسلمين ، وذلك على الرغم من توفّر الإمكانات العلمية والمادية لديهم[1]،فقد افتقدوا إلى الهمّة العالية والتنظيم والتعاون نتيجة تشتّتهم إلى نطاقات جغرافية وسياسية واجتماعية ، بينما قام بهذا العمل العلمي المطلوب مجموعة من علماء الغرب المعنيين بمعارف الشرق ، وهم الذين يُعرفون باسم (المستشرقين) ، ومهما كانت أغراض هؤلاء العلماء الغربيين من إنتاج ما أسمَوه (دائرة المعارف الإسلامية)[2] ، ومهما كانت هذه المعلومات التي قدّموها قابلـةً للنقد والتصحيح ؛ فإنّه ليس بمقدور أيّ مُنصِف أن يسلُبها قيمتها العلمية بصفتها خدمةً لا بأس بها لعلوم ومعارف المسلمين .

وقد اعتمد الباحث على ما تناولته هذه الموسوعة – في طبعتيها الأولى والثانية – وما كتبه مستشرقون آخرون في أبحاث مستقلة من معلومات علمية عن التأريخ عند المسلمين ، وذلك للخروج بدراسة عن

المنهجية العامة للتأريخ عند المسلمين منذ أقدم العصور ، غير أنّه لم يقبل آراء المستشرقين ومعلوماتهم من غير نقد أو تمحيص في ضوء ما جاء في بعض المصادر الإسلامية عن ملامح علم التأريخ عند المسلمين ، وما توصّلت إليه بعض الأبحاث التي قام بها المسلمون في العصر الحديث ، كما أنّه يودّ التنبيه إلى أنّ المستشرقين – وإن كانوا قد كتبوا عن معظم المؤرخين المسلمين ومناهجهم – إلاّ أنّ تناولهم لمناهج الكتابة التاريخية عند المسلمين لم يكن تناولاً صريحاً واضحاً ، ولكنّ استقراء ذلك من كتاباتهم تطلّب من الباحث الكثير من العناء والجهد ، فقد كتب عددٌ كبيرٌ من المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية حول التاريخ الإسلامي[3] والمؤرخين المسلمين ومؤلفاتهم التاريخية[4] ، وكلٌّ عبّر بما يكشف عن وجهة نظره الشخصية وقدراته العلمية وملكة النقد والتحقيق لديه ، وبدراسة كافة المواد المتعلّقة بالتاريخ الإسلامي في دائرة المعارف الإسلامية وغيرها من كتابات المستشرقين المستقلة – دراسةً منهجيةً – ؛ أمكن تكوين تصوّرٍ عامٍ عن آراء هؤلاء المستشرقين حول مدى التزام المؤرخين المسلمين بالمنهجية العلمية في كتاباتهم التاريخية .

وبما أنّ المستشرقين لم يتفقوا أصلاً على وجود شيء يمكن تسميته بالمنهجية الإسلامية في البحث التاريخي ، فضلاً عن محاولة رصد أو رسم ملامح هذه المنهجية اللهم إلاّ محاولة المستشرق روزنثال Rosenthal[5] القيّمة[6] ؛ فلا يسع الباحث في هذا المقام إلاّ محاولة استقراء المناهج العلمية في البحث التاريخي التي أشار إليها كلّ مستشرق فيما كتبه حول موضوع تاريخي إسلامي ورأى أنّ أحداً من المؤرخين المسلمين أو عامة المؤرخين المسلمين قد استعملها في كتابته ، ومن ثمّ يمكن تكوين ملامح

المنهجية التاريخية التي يرى المستشرقون أنّ المؤرخين المسلمين قد ساروا عليها أو خرجوا عنها في كتاباتهم التاريخية .

وبعد أن استطاع الباحث رصد هذه المناهج التي أشار إليها المستشرقون في مقالاتهم في دائرة المعارف الإسلامية ، وتحليلها وتصنيفها ؛ تبيّن أنّها عِلميّة الطابع في غالبها ، وأنّ الفحوى العام لآراء المستشرقين الكثيرة – والمتباينة أحياناً – هي : سَير المؤرخين المسلمين على منهجيةٍ علميةٍ ، وإن لم تكن محددة المعالم لديهم ، وقد عبّر كثيرٌ من المستشرقين[7] عن إعجابهم بكثيرٍ من المؤرخين المسلمين لالتزامهم بمنهجية علمية معيّنة أثناء تعريفهم بهم في مختلف المقالات[8] .وسوف يقوم الباحث باستعراض هذه المناهج المستنبَطة مع التعليق عليها ومناقشتها في فصلَين ، ويحاول تصنيف هذه المناهج حسب الأركان الأربعة التي يتكون منها البحث العلمي التاريخي الحديث .والبحث التاريخي الحديث لا يخرج أيضاً في مجمله عن الأركان الأربعة (**اختيار موضوع البحث**

أو الدراسة– جمع المادة العلمية للبحث– تأليف المادة العلمية أو عرضها– التوثيق العلمي)، ولذلك سيتمّ تصنيف المناهج المستخلصة من كتابات المستشرقين عن أشهر المؤرّخين المسلمين حسب هذه الأركان الأربعة . والدوافع الذاتية في رأي المستشرقين كثيرةٌ ، منها :

– أن يُقْبل المؤرخ على كتابة الموضوع التاريخي المتعلّق بشخصيةٍ مسلمةٍ بارزةٍ حُبّـاً في تخليد ذِكراها[9] ، وهو ما حصل في بداية أمر الكتابة التاريخية عندما أقبل المسلمون على كتابة السيرة النبوية حُبّـاً في تخليد ذِكرى الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلاّ أنّ المستشرقين رأوا فيما يخصّ أمر

الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ دافع حُبّ تخليد الذِكرى كان مقترناً بدافع تقليد الأمم والديانات الأخرى السابقة[10]. والباحث لا ينكـر أنّ تدوين السيرة المطهرة كان من دوافعه تخليد ذكرى الرسول صلى الله عليه وسلم[11]، ولكنّه يستبعد اقتران هذا الدافع برغبة تقليد الأمم أو الديانات الأخرى ، إذ لم يكن المسلمون في حاجةٍ إلى هذا التقليد وهم يعلمون أنّ ما في كتب الديانات السابقة التي اطّلعوا عليها من قصص أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام ، هي في جُلّها قصصٌ مشوبةٌ بالخرافة والزيف لا تهدف إلى تخليد ذكرى هؤلاء الأنبياء بل تهدف إلى تشويه سيرهم الطاهـرة خدمـةً لأغراض أتباعهم الشخصية[12] ، هذا فيما يتعلّق باليهودية والنصرانية .

وأمّا فيما يتعلّق بأمر الأمم الأخرى فلم يتيسّر لمؤرخي الإسلام في عهد بداية كتابة السيرة المطهرة الاطلاع على (شاهنامه) الفُرس ولا سِيَر ملوك اليونان والرومان ، وذلك لأنّ مهد كتابة السيرة المطهرة كانت المدينة المنورة التي كانت في منآى عن جميع هذه المعلومات الجديدة في تلك الفترة ، وهذا الأمر وإن خفي على ليفي دالاّ Levi Della [13] ، فإنّه لم يخف على هملتون حِب H. Gibb [14] الذي دافع عن رأيـه في أنّ كتابة السيـرة (فكرةٌ عربيةٌ خالصةٌ متصلةٌ بضوابط علم الحديث العربي الصحيح)[15].

– الإحساس بالانتماء إلى إحدى الفِرَق الدينية الإسلامية[16] أو إقليم جغرافي[17]، والرغبة في تسجيل مآثر هذه الفِرقة أو هذا الإقليم .

ويرى ابعض الباحثين أنّ هذا الدافع يتمثّل في الكتابات التاريخية حول التراجم الخاصة بالفِرَق الدينية وحول فتوح بلدانٍ مخصوصةٍ أو تواريخ مدنٍ مخصوصةٍ[18].

– الرغبة في تكملة كُتبٍ تاريخيةٍ سابقةٍ ابتداءً من النقطة التي توقّف عندها مؤلّفوها ، بحيث يستغني المؤلّف الجديد عن إعادة الكتابة حول المعلومات التي كتب عنها المؤلّف السابق .

وقد وجدت الأبحاث أنّ هذا النوع من الدوافع الذاتية يمكن تلمّسه بصورةٍ ملفتةٍ عند مؤرّخي الدولة العثمانية ، حيث طال عهدها وكان المؤرّخ يجد من السهل تكملة تاريخِ تناولَ سِيَر بعض الخلفاء حتى وفاة صاحب ذلك التاريخ ، ولأنّ مصادر المعلومات تكاد لا تختلف عند المتأخّر عن مصادر المتقدّم فيما يتعلّق بالفترة التي كتب عنها المتقدّم ، فيجد المتأخّر معلوماتٍ جديدةٍ ومتنوّعةٍ عن الفترة التي لم يكتب عنها المتقدّم ، فيدفعه ذلك إلى إكمال الجهد السابق بجهدٍ جديدٍ يبرّز فيه شخصيته في التأليف ، بدلاً من تضييع الوقت في صياغة المعلومات القديمة نفسها بعباراتٍ أخرى[19].

يرتبط الحديث عن مناهج المسلمين في كتابة التاريخ الإسلامي بالحديث عن تدوين التاريخ والهدف منه، فمن المعلوم أن تقصى الرواة الحديثين أدى الى نشؤ أحد فروع التاريخ عند العرب، وهو تراجم الأشخاص وطبقاتهم، كما مهدت العلوم الحديثة لنشأة علم التاريخ نفسه على نحو إجمالي مبتدئا بتدوين السير والمغازي النبوية بحسب إتباع منهج الإسناد القائم على منهج الجرح والتعديل ولذا فإنه يمكننا القول بأن علم التاريخ قد نشأ وترعرع في أحضان علوم الحديث، حيث استعار

علم التاريخ من علم الحديث أداه نقدية عملية استخدمت في تنقية وغربلة الأخبار التاريخية منذ أن اهتم العرب بتدوين هذه الأخبار عند منتصف القرن الثاني للهجرة. وكان الهدف من تدوين التاريخ عند المسلمين، في البداية، يرتبط قبل كل شيء بمقتضيات ومتطلبات دينية صرفة.[20]

وفي ارتباط التاريخ الإسلامي بالحديث النبوي الشريف كما نرى حصانةٌ له ووقاية من عبث العابثين وضلال المضللين على مر الدهور والسنين، وقدرة على الاستمرار رغم ما يحاك ضده من مكايد ويهدده من أخطار، فُسنّة الله في كونه ماضية وُسنّة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) واقية وحامية لما حواه سجل تاريخ الإسلام حاضراً وفي العصور الخالية.

ومسألة موضوعية المستشرقين وإنصافهم للإسلام والمسلمين ليست إلا ضلال وتضليل للمسلمين وليس كما يزعم بعض المسلمين أنها من أجل خدمة العلم وحده إذ العلم في الإسلام إنما هو وسيلة، وليس غاية[21]. يقوي من ذلك سبب موضوعي واضح يحول بين المستشرقين وبين الموضوعية والأمانة العلمية، وهو عداوة وكره معظمهم للإسلام، وحقدهم الصليبي عليه وهو الحقد الذي يتغلغل في كل دراساتهم لهذا الدين. ففيما يتعلق بالإسلام لا تجد موقف الأوربي موقف كره في غير مبالاة فحسب، كما هو الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات، بل هو كره عميق الجذور، يقوم في الأكثر على صدور من التعصب الشديد. وهذا الكره ليس عقلياً فحسب، ولكنه يصطبغ أيضاً بصبغة عاطفية قوية. وإن اعتبرنا الأعمال العلمية التي أنجزها المستشرقون في شتى فروع

الدراسات الإسلامية بحر لا ساحل له، فأكثرها انتشاراً وتداولاً بين الباحثين من جميع المستويات، هي دائرة المعارف الإسلامية التي أصدرها وأشرف على تحريرها نخبة من المستشرقين، برعاية الاتحاد الدولي للمجامع العلمية. وجل موادها متعلقة بالإسلام والمسلمين، فيها كثير من الآراء والمعلومات التي تحتاج إلى المراجعة والتصحيح . و من بين النتائج:

1- مناهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين المسلمين مصدرها الأساس القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بينما مناهج المستشرقين مصدرها كل ما من شأنه طمس معالم المنهج الإسلامي في التوثيق والتحري والضبط والدقة.

2- الموضوعية العلمية التي ادعاها ويدعيها المستشرقون بدعوى الأمانة العلمية والإنصاف ما هي إلا محاولة جادة لإيجاد أرضية يشكلها بعض علماء المسلمين يشيد عليه المستشرقون صرحاً لا أساس له إلا الأباطيل والأكاذيب، وقد أفلحوا في ذلك، وبفضل أولئك تمكنوا من الوصول إلى غاية تنبه لها علماء مسلمون تولو ا الرد عليهم بالدليل الساطع والبرهان القاطع والحجة البينة.

الإحالات:

---

(1) فجميع الموسوعات الصادرة عن الجهات الإسلامية ذات الطابع المعرفي العام ؛ إنّما تعتمد في أصولها على دوائر المعارف التي أنتجها علماء الغرب ، غير أن بعض مقالاتها وموضوعاتها قد تمّ مراجعتها من قبل لجان مكونة من المسلمين ، أو قام بعض المسلمون بإعادة الكتابة لبعض موضوعاتها ، وهي قليلة .

(2) دائرة المعارف الإسلامية هي ترجمة عربية لعنوان مؤلَّف هو باللغة الإنجليزية كالتالي Encyclopedia of Islam ، وهو يحتوي على مقالات تتعلق بجميع أنواع المعارف الإسلامية بأقلام كبار العلماء الغربيين المعنيين بالعلوم والمعارف الإسلامية ، وقد أتت فكرة هذا العمل عند المستشرقين من خلال مناقشاتهم لأفضل السُبل المؤدّية إلى التعريف بالإسلام والمسلمين – وفق

نظرتهم – تعريفاً شاملاً ، وذلك في لقاءٍ لكبار المستشرقين عام 1895م ، وترأس تحرير هذه الدائرة هوتسما Houtsma ، ثم ونسنك Wensinck منذ عام 1924م ، وتولّت نشرها دار بريل الهولندية E. J. Brill ، وجُمعت ميزانيتها من المجامع العلمية الأوربية ، وقد صدر المجلّد الأول منها في 1908م ، واستمرّ الإصدار حتى اكتمل في عام 1938م في أربعة مجلدات ضخمة وملحق يزيد عدد صفحات كلّ مجلد عن ألف صفحة على عمودين من القطع المتوسط ، وأمّا طبعتها الثانية التي لم تكتمل بعد ؛ فقد بدأت فكرتها بعد الحرب العالمية الثانية ، عندما بات من الضروري تغيير أسلوب وفحوى كثير من المعلومات الواردة في الطبعة الأولى ممّا لم يعد يتفق ومتطلّبات الاستشراق

المعاصر ، فبدأ العمل ثانيةً من أجل إصدار طبعة جديدة منقحة ، وفي 1956م تمّ اختيار شاخت Schacht لإدارة تحرير الطبعة الجديدة وتولّت دار بريل Brill أيضاً نشرها فصدر المجلد الأول منها عام 1960م تحت مسمّى (دائرة المعارف الإسلامية الجديدة) The New Encyclopedia of Islam، وهذه الطبعة يتوقع لها أن تخرج في عشر مجلدات ضخمة تزيد صفحات كلّ مجلد على ألفي صفحة على عمودين من القطع المتوسط ، كما تتميز أيضاً بمشاركة عددٍ كبيرٍ من أساتذة الجامعات المسلمين في تحرير مقالاتها ، ولكنّها بذلك فقدت أصالتها الاستشراقية التي تمتعت بها الطبعة الأولى والتي حرّر مقالاتها أئمة الاستشراق ، ومثّلت كتاباتهم مناهج استشراقية متوارثة خير تمثيل .

(3) ويعني الباحث بالمقالات التي كُتبت حول التاريخ الإسلامي : المقالات التي عالجت فنّ التأريخ عند المسلمين ، ولا يعني المقالات المتناولة للأحداث التاريخية ، فهي كثيرةٌ جداً .

(4) لقد بلغ عدد المستشرقين الذين كتبوا حول هذه الموضوعات في دائرة المعارف الإسلامية في طبعتيها (الأولى والثانية) حوالي 70 مستشرق ومستشرقة ، كما بلغ عدد المقالات حوالي 190 مقالاً .

(5) هو : فرانز روزنثال .Franz R ، مستشرق أمريكي من أصل ألماني ، ولد في برلين Berlin عام 1914م وتخرج في جامعتها في 1935 ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية .U.S.A في 1940 وعمل أستاذاً للغات السامية في كلية الاتحاد العبري ، ثم في جامعة بنسلفينيا University of Pennsylvaniaثم في جامعة ييلYale University ، اهتمّ بالشرق الأدنى في دراساته العديدة كما زار تركيا وبعض البلاد العربية . انظر : فرانز روزنثال ، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ، ترجمة : أنيس فريحة ، بيروت : الدار العربية للكتاب ، ط4 : 1983 ، ص7 (بقلم المترجم أنيس فريحة) .

(6) فقد قام المستشرق فرانز روزنثال F. Rosenthal بتقرير المنهجية الإسلامية في البحث التاريخي ، ورسم ملامح هذه المنهجية في كتابَيه : 1- عِلم التاريخ عند المسلمين History of Muslim Historiography ، 2- مناهج العلماء المسلمين في البحث العِلمي .

(7) ويُلاحظ في هذا الصدد :

أنّ أكثر المستشرقين اعتناءً بموضوع التزام المؤرخين المسلمين بالمنهجية العلمية في كتاباتهم هم :

- المستشرق هوروفيتس Horovitz
- المستشرق كارل بروكلمان C. Brockelmann
- المستشرق فرانز روزنثال F. Rosenthal

ونلاحظ كذلك أنّ هؤلاء الثلاثة لهم باعٌ طويلٌ في الكتابة حول التراث الإسلامي وخاصةً التاريخ[2] كما أنّ كتاباتهم يمكن وصفها بأنّها أكثر الكتابات الاستشراقية اعتدالاً أو واقعيةً ، أو أنّها أقلّها تحاملاً .

وتجدر ملاحظة هذا التوافق بين كثرة الاشتغال بأمر التاريخ الإسلامي وبين الاقتراب من الصحة في الحُكم ، إذ أنّ هذا التوافق يدلّ على ما أشار إليه المستشرق روزنثال Rosenthal من وجود تشويهٍ متعمّدٍ وغير متعمّدٍ لصورة التراث الإسلامي في الكتابات الغربية [انظر : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ، ص18،19] ، فهذا التشويه جعل قليلي الاشتغال بالتراث الإسلامي متمسّكين بالفكرة العامة السائدة في الغرب المبنية على تلك الصورة المشوهة ، أمّا الذين كسبوا باعاً جيداً في دراسة التراث الإسلامي ووقفوا على مصادر إسلامية في صورتها الأصلية تتغيّر لديه الفكرة السائدة تدريجياً إلى الاقتراب من الحقيقة على الرغم من تأثرها بمؤثراتٍ عقديةٍ وعنصريةٍ واجتماعية .

(8) انظر على سبيل المثال :

Encyclopedia of Islam (first edition) : H. Beveridge, Khwandamir, vol.IV, p. 899–900 ; F. Babenger, Selaniki, vol.VII , p. 207 ; Blachere, Al-Tulaitili, vol.VIII , p. 831 ; Brockelmann, Al-Kalkashandi, vol.IV , p. 699–700 ; Bartold, Gardizi, vol.III , p. 130–131 ; Kraimars, Munadjdjim Bashi, vol.VI , p. 722 ; E. Berthels, Nizami Hasan, vol.VI , p. 939 ; F. Babenjer, Naima, vol.VI , p. 839 ; & Encyclopaedia of Islam (new edition) : Nalino , Abu 'l Faradj al Isbahani , vol.I , p. 118 ; Rosenthal, Al-Azdi, vol.I , p. 813 .

(9) انظر :

Levi :E.J.BRILL, The Encyclopedia of Islam (First edition), Leiden, 1931 Della, Sira, VII/ 440 ; H. Gibb, Tarikh, IX/ 233–234

(10) انظر : Levi Della, Sira,VII/44 Encyclopaedia of Islam (First edition)، وقد قال بهذا الرأي مستشرقون من أمثال : شبرنجر Sprenger ونويلديكه Noldeke في كتابهما ((سيرة محمد)) [قلتُ : صلى الله عليه وسلم] المنشور في برلين Berlin عام1861م ، وتبنّاه ليفي دالاّ Levi Della في دائرة المعارف الإسلامية .

F. Babenger, Rashid Mehmed, : Encyclopaedia of Islam, (first edition) Th. Menzel, ؛ Th. Menzel, Othman-zade, VI/ 1013–1014 ؛ VI/ 1122 Walsh, Ata'i, :Muhyi 'l-din Muhammed, VI/ 703 ; & **Ibid**, (new edition) . I/ 732–733

[20] – محمد عبد الكريم الوافى: منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب. بنغازي. جامعة قار يونس، ط1، 1990م،ص1

[21] – أحمد غراب. مرجع سابق ص 79